العناصر التراثية.. في شعر علي بن المقرب العيوني

٥٧٢ هـ - ٦٣٠ هـ - ١١٧٦ - ١٢٣٢ م

بقلم الدكتور:
أحمد موسى الخطيب

إبن المقرب العيونى شاعر بحرينى ولد عام ٥٧٢ هـ وهو أحد أبناء الدولة العيونية التى حكمت البحرين فى الفترة بين ٤٥٠ ـ ٦٥٠ هجرية أى حوالى ٢٠٠ عام .. وابن المقرب شاعر متميز يجتمع فى شعره الابداع الفنى والتسجيل التاريخى ومن هنا جاءت قيمة الشاعر وشعره من الناحية التاريخية إذ يعتبر دون مبالغة المصدر الأساسى لتاريخ الدولة العيونية ذلك لأنه حرص خلال شعره على تسجيل أسماء ملوك هذه الدولة وأبرز الأحداث التى مرت بها .

لهذه الأسباب نقدم هذه الدراسات عن الشاعر فى الوثيقة .



إختلف أصحاب التراجم، ونساخ ديوانه، وبعض المعاصرين من الباحثين فى إسمه، ولقبه، وكنيته، وفى ترتيب آبائه، حتى الجد الأعلى للعشيرة. ولكن ما انتهينا اليه ورجحناه مطمئنين أن شاعرنا هو «على بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز بن ضبار بن عبد الله بن على بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن محمد العبدلى، العامرى، اللكيزى الربيعى، البحرانى، العيونى، الاحسائى، أما عن لقبه وكنيته، فقد لقبه المؤرخون بخمسة ألقاب هى: جمال الدين، وكمال الدين، وموفق الدين، ومهذب الدين، ونور الدين، ولكنه اشتهر بالأولى منها.

كما كنوه بأربعة كنى: أبى عبد الله، وأبى الحسن، وأبى المنصور، وأبى القاسم. وقد اشتهر بالكنيتين الأوليين.

وربيعة جد شاعرنا الأعلى، وقبيلته فخذ من قبيلة عبد القيس العدنانية ذات الأمجاد، والذائعة الصيت فى الجاهلية والاسلام.

ويطلق على عشيرته (آل عبدل) نسبة الى جدهم عبد الله بن على،

مؤسس الدولة العيونية . ويقال لعشيرته (آل ابراهيم) نسبة الى الجد الأعلى ابراهيم بن محمد .

وعرف قومه (بالعيونيين) نسبة الى بلدة «العيون» بالاحساء ، وبهذه الأخيرة عرف التاريخ دولتهم وتحدث عنهم .

نشـــأته :

وليس بين أيدينا من الأخبار والروايات فى كتب الأقدمين ما ينير جوانب حياة ابن المقرب ، فيبدد الظلمات التى تكتنف نشأته ، ويصف تقلبه فى الدنيا طفلا ، وفتى ، وكهلا ، ثم يكشف عن أثر البيئة فى نفسه ، وما كان لقبيلته من أثر فى فصاحته ، وما أفاده فى بلده قبل أن يرتحل عنه ، وما أفاده من حلقات العلماء هناك ، فى نمو معارفه ، وعمق مداركه ، ونفاذ بصيرته .. وإنما هى نتف أوردها القدماء فى كتبهم .

يذكر ابن الشعار ان ابن المقرب قد ولد عام ٥٧٢هـ فى بلده العيون من نواحى الاحساء ، وبين أهله وعشيرته ترعرع ، وعاش طفولة مجهولة كالكثير من الشعراء ، وزاد أنها مجهولة تماما . ويفهم من شعره أنه قضى أيام شبابه وصباه فى ربوع البحرين ، ويبدو أنها كانت أياماً عذبة . كما أمضى شطرا من أيام شبابه اللاهى فى (الحجر) قصبة اليمامة و (إجلة) من نواحى اليمامة أيضا ، قبل أن تذهله صروف حياته عن متع الدنيا وملذاتها .

ويدهشنا الشاعر لغياب أسرته فى ديوانه ، فلم يذكر والده سوى فى موضعين ، وكذلك أمه . والشىء الذى لا شك فيه أن والده من آل ابراهيم العيونيين ، ومن رجال الصف الثانى أو ما بعد ذلك ، لا خطر له بينهم ، ومثله كثيرون فى أى أسرة حاكمة فى كل زمان ومكان . وأن أمه من بكر بن وائل .

ويخلو ديوان ابن المقرب تماما من رثاء أمه وأبيه ، مما يجعلنا نرجح ـ مطمئنين ـ أنهما قد ماتا وهو صغير ، فعاش يتيما محروما من عطف الأب ، وحنان الأم . ويبدو أنه الابن البكر والوحيد لهذين الأبوين لخلو ديوانه من ذكر أخ أو أخت له .

ملامح شـــخصيته

يرى العقاد أن تمام الطبيعة الفنية «أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا ، لا ينفصل فيه الانسان الحى من الانسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره ، وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه ، يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يخفى فيها ذكر خالجة

ولا هاجسة ، مما تتألف منه حياة الانسان ، ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل»

والقارىء لديوان ابن المقرب تطالعه شخصيته واضحة الملامح ، وكأنه يعوض بذلك ما لحقه من تقصير مؤرخي الأدب ، وإهمالهم له ، فحفظ لنا شعره - بكل أمانة - معالم شخصيته ، فقد كان عزيز النفس ، سامي الهمة ، طموحا الى المجد :

يظنّ نُحولى ذو السفاهةِ والغبا
غراماً بهندٍ واشتياقاً الى دَعْدِ
ولم يدرأنّى ماجد شفّ جسمَهُ
لقاءُ هُموم خيلُها أبداً تَرْدى
قليلُ الكرى ماضٍ على الهول مُقدمٌ
على الليل والبيداء والحَر والبردِ
عدِمتُ فؤاداً لا يبيتُ وهمّه
كرامُ المساعى وارتقاءُ الى المجدِ

أما رفضه الضيم والخنوع ، فقد كان من أبرز ملامح شخصيته ، وكلفه هذا الهجرة عن الوطن ، حيث يقول :

خليلىّ ما دار المذلّة فاعْلَما
بدارى ولا من ماءِ أعدادها وردى

كما كان صاحب عزيمة متوقدة ، وحماسة لاهبة ، وحكمة تحفل بالكثير من هذه المعانى ، كما أن فخره ينمّ على أنه من أنصار القوة فى الحياة ، ويرى القوة هى السبيل لمواجهة تحديات الحياة :

بالسّيف يُفتح كلّ باب مُقفل
وتُحلّ عُقدةُ كلّ خطب مُشْكل

والسيف (وهو رمز القوة عنده) يعد اللغة المثلى للتفاهم مع الأعداء ، ولا سبيل سواها ، وهو يؤمن بسياسة القوة سبيلا «لاستعباد» الناس . وكل شعره دعوة للحرب ، وحشد الجند ، ورفع السلاح ، وكأنابروح أبى الطيب تطالعنا فى ثنايا العديد من قصائده . فهو لا يميل الى التعلق بأوهام الحياة وسراب آمالها الخادع ، وتعاف نفسه استمراء الراحة ، فنفسه العظيمة فى طراد دائب .

وكان جريئاً فى إعلان رأيه ، مخلصاً فى نصحه ، عفيفاً فى لومه ... ولأمر ما يُنكب ، ويُلقى به فى السجن ، ويُنفىً باختياره الى العراق ، ومع ذلك يظل جلدا صابرا :

مُنيت من الزمان بعنقفير
قليل عندها حَزُّ الشفارِ
فِراقُ أحبةٍ وذهابُ مالٍ
وضيمُ أقارب وأذاةُ جارِ
فلا والله ما وجْدُ كوجدى
ولا عُرف اصطبار كاصطبارى

ويبدو أنه قد واجه تحديات واقعة ولم يكن قد بلغ سن الحلم ، حيث يقول :

فقد كلّفتنى خططاً أشابتْ
قذالى قبل خطّ فى عذارى

وعلى الرغم من أن قومه قد ضايقوه

فى عيشه ، وناصبوه الريب والحذر إلا أنه كان لهم اللسان المنافح عنهم ، المعبر عن أمجادهم :

لقد بذلوا المجهودَ فيما يسوءنى
وقد كنتُ أرمى دونهمْ وأجالدُ

هذا ومع ارتحاله بعيدا عنهم ، إلا أنه كان حفياً بأنبائهم ، يسائل الركبان عنهم ، حيث يقول :

وإنّى حفىّ عنهُمُ ومُسائلُ
بهمْ حيث يَنْوى السَّفْر أو ينزل الركبُ

وهذه الأخلاق النبيلة التى فاضت بها نفسه ، والتزم بها طوال حياته ، شيمٌ عربية أصيلة ، ومرتكز أساسى للفخر القومى فى أدبنا العربى .

وكان ابن المقرب قد عزم ألا يمدح سوى أمراء بيته العيونى ، فلا يليق بمثله أن يمدح ويتكسب :

وإنّى لأشنا المدْحَ فى غير سيّدٍ
أبوه أبى لوزاحَمَ النجمَ كاهلُه

ولكن أرزاء الدهر كانت أقوى - على ما يبدو - من كبرياء نفسه ، فاضطر لأن يمدح ويطلب النوال ، ويرجو .. ولكن ما يغفر له أنه لم يمدح من رجالات العراق إلا من عرف بخطر سياسى أو اجتماعى أو علمى .. من أمثال الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ، والخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ، وشمس الدين باتكين أمير البصرة ، وبدر الدين لؤلؤ أمير الموصل (ت ٦٥٧ هـ) والملك الأيوبى الأشرف (ت ٦٣٥ هـ) والنقيب العلوى تاج الدين اسماعيل ، والعالم الجليل أبى البقاء العكبرى .

عاش ابن المقرب فى بيئة شهدت قدرا غير قليل من الانحلال والتفسخ ، ومع ذلك أبى لنفسه - صيانة لعرضه - أن يشينها ، أو يعطى الشانئين فرصة للنيل منها ، فهو يقول :

وأكبرتُ نفسى أن أجالس قينة
ودُفّاً ومزماراً وعوداً وأعبدا
وأن أجعل الأنذال حزباً وشيعة
ولو جار فىَّ الدهر ما شاء واعتدى
فلستُ ببدْع فى الكرام وهذه
سبيل ذوى الأفضال والبأس والندى

وكان الشاعر شديد الاعجاب بنفسه ، معتداً بها ، لا ينساها حتى إذا مدح ، حيث كانت تغيب أو تذوب ذوات الكثير من شعرائنا ، وكان يرى أنه خير أبناء قومه ، وفتاهم الأول . ولعل هذا الإعجاب بالنفس تعويض عما لقيه من ظلم ذويه ، وإهمالهم له ، وإلا فما الذى يدفعه لأن يقول :

فإن لم يكن لى ناصر من بنى أبى
فحزمى وعزمى يغنيانى عن الحشد
وإن لم يدرك العليا همام بقومه
فنفسى تناجينى بإدراكها وحدى

وأول ما يخطر بذهن قارىء هذه الأبيات ومثيلها فى ديوانه روح أبى

الطيب ، ونفسه العظيمة ، ولم لا ، ففيه من أبى الطيب شموسه واباؤه ، وعلو همته ، وسمو أمله ، وكلاهما من أنصار القوة فى الحياة ، ولم يكونا من أصحاب الحظوظ السعيدة ، حاربتهما المطالب ، وحاربهما المجتمع ، وكان اعتدادهما الشديد بالنفس أحد العوامل الهامة التى حالت دون تحقيق ما كان يطمح كل منهما اليه .

وكما كان شديد الاعتداد والإعجاب بذاته ، فقد كان مزهواً بشاعريته ، ويرى أن نظمه يفوق شعر أقرانه وأنداده ، وتردد هذا فى مواضع عديدة من ديوانه ، ومنه قوله :

وغـريبُ نظمٍ فـاق أشعـار الـورى
فيكُـمْ بسـاحـةِ كـلّ أرضٍ ينشـدُ
وإليكـهـا يـأبـا عـلىّ مِـدْحـةً
مـن فضلـهـا أنـىّ عليـهـا أحسـدُ
جـاءتْ نسيجةَ وحـدِها فى عصرها
إذ أنـت فى هـذى البـريّـة أوحـدُ

وما بين أيدينا من أخبار قليلة عن الشاعر ، لا ينفعنا فى تصور ملامحه وسماته ، لإغفالها أوصافه ، وشعره أيضا لم يسعفنا بشىء من ذلك ، اللهم إلا إشارته فى موضعين من ديوانه لنحوله ، والذى كان ـ كما يبدو ـ سمة ظاهرة ، لافتة للنظر بل وللتساؤل والتوهم :

يظنُّ نُحـولى ذو السفاهـةِ والغبا
غـرامـا بهنـدٍ واشتيـاقـاً الى دعـد

وتتكرر هذه الاشارة ، وبالمعنى نفسه ، فى قصيدة له يمدح فيها الخليفة الناصر لـدين الله عـام ٦١٤هـ ، ولكن صفة النحّول هنا تصاحبها صفة الاصفرار :

ظننتَ نُحولى وأصفرارى من الهوى
وذلـك ممـا يقتضيـه التـوهّـمُ

ولا يترك الشاعر من يشغلهم أمر نحوله واصفراره يخبطون فى وهمهم كما يشاءون ، بل يفصح لهم عن علّة ذلك .

لـعمـرك مـابى مـن هـوى غـير أننى
بغُـرّ المعـالى يـا إبنـة القـوم مُـغـرمُ
وقـد عـرضتْ من دون ذاك فـأحـرضَتْ
أمـورٌ لـهـا يُستـهلَـكُ اللحـمُ والـدّمُ

ومن كان على شاكلة ابن المقرب فى حدة طبعه ، ورهافة حسه ، وسمو هدفه ، وعانى مثله اضطهاد ذوية ، وإنكار مجتمعه له ، فالنحول صفة لازمة له ، أما الصفرة التى بدت على محيا شاعرنا عام ٦١٤ هـ ، فلعلها أثر لهمه الذى لا يزايله ، حتى وإن بدا ساكناً :

إن تـرى شخصى لأمـر سـاكنـاً
فـلـعمـرى إن قلبـى فى طـراد

فهو همّ مقلق لمضجعه :

قليـل الكرى مـاضٍ على الهـولِ مُقدمُ
عـلى الليـل والبيـداء والحـرّ والبـردِ

وربما كان اصفراره ناجماً عن مرض مزمن قد أصابه ، وبدأت أعراضه تظهر عليه ، وأدى الى وفاته

فى سن مبكره ، فقد توفى وهو في السابعة والخمسين من عمره .

ثقافته

ويخلص قارىء ديوان ابن المقرب الى أنه قد ألم من ثقافة عصره بما يعينه على أن يكون شاعراً متمكناً من أدواته الفنية ، من ثراء فى الألفاظ ، وقوة فى الصياغة ، وسلامة فى البناء ، وغنى فى الإيقاع ، بالاضافة الى ثقافته الدينية والفلكية ، وعلمه بالأنساب ، وإحاطته بأيام العرب ، وبتاريخ قبيلته فى الماضى والحاضر ، ووقوفه على دقائق تاريخ دولتهم منذ نهوضها ، وحتى تقوض سلطانها .

وفاته

فى البحرين ، وعلى أرض الاحساء التى ناضل دونها ، وارتحل عنها من أجلها ، لفظت تلك النفس الكبيرة أنفاسها الأخيرة ، مشيعاً بما أخلص من نية ، وأحسن من عمل ، وبذل من جهد ، وأبدع من قول .

وقد أجمع من ترجموا له على أنه ولد فى العيون عام ٥٧٢هـ ، أما وفاته فقد اختلفوا فى تحديد زمانها ومكانها . ولكن ما نطمئن اليه أنه قد توفى بالبحرين أواخر المحرم عام ٦٣٠ هـ .

توفى ابن المقرب ، ولا نعرف كم ترك من البنين ، فقد ورد فى شعره ما يفيد أنه كان متزوجاً ، وأباً يسعى لتحقيق حياة كريمة لأسرته ، بعد أن جار عليها الزمن ، فمن قصيدة له يمدح فيها الأمير محمد بن على العيونى عام ٦٠٥ هـ يقول :

فُصن حُرَّ وجهى عن سؤالٍ فإنّه
علىَّ ولو عاشَ ابن زائدةٍ صعبُ
ورُدَّ كثيراً من يسير تَقُتْ به
فراخاً قد استولى على ربْعها الجدبُ

***

كان هذا عرضا لابد منه لحياة الشاعر وشخصيته وننتقل الآن الى الجزء الرئيسى من هذا البحث :

منذ أن أخذت تجربة الشعر الجديدة تفرض نفسها على الساحة الأدبية ، بدأت تتتابع مجموعة من الدراسات الجادة لتقويم هذه التجربة الجديدة ، واستأثرت صلتها بالتراث بالحظ الأوفر من جهود المؤيدين لها أو الرافضين ، وتخصصت بعض الدراسات فى الكشف عن قيم التعبير والتصوير عند الشاعر المعاصر من خلال توظيفه لعناصر التراث توظيفا ايحائيا رمزيا .

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل استخدم على بن المقرب العيونى ، شاعر الاحساء (٥٧٢ ـ ٦٣٠ هـ) فى هذه المرحلة المتأخرة عناصر التراث للتعبير عن آفاق تجاربه الفنية ؟ والى أى مدى استخدمها ؟ وكيف تعامل

معها فى شعره ؟

وهذا البحث محاولة للاجابة عن هذه الاسئلة :

لا يستطيع أى أديب أن يفلت واعيا أو غير واع من تأثير عاملين أساسيين لهما سطوتهما على ابداعه ومصادر إلهامه :

الأول : هو الواقع الذى يعيش فى اطاره بتأثيراته الانسانية والطبيعية فالانسان فنانا أو غيره ـ لا يعيش في فراغ ، وإنما هو إفراز محدد لواقع معين يرسم له كثيراً من خصاله وصفاته الانسانية والنفسية ، ويصوغ له ـ الى حد ما ـ مواقفه الفكرية ومفاهيمه الجمالية إزاء حركة البشر فى عالمه .

والثانى : هو التراث وتقاليد النوع الفنى الذى يبدعه فالأديب فى ظل أية مرحلة ، وتحت أية مدرسة ليس إلا حلقة متواضعة فى سلسلة تاريخية فارعة الطول [1] .

فخبرة الشاعر الجمالية ـ إذن ـ تتشكل من خلال معايشته الطويلة لصياغة تراثه الشعرى ، ووقوفه على كيفية استثمار سابقيه لطاقات اللغة وامكاناتها اللامحدودة فى العطاء والدلالة ، والخبرة اللغوية عند الشاعر يتوقف ثراؤها وعمقها على كيفية تعامله مع التراث القديم ، ومدى قدرته على الافلات من سطوته وتجاوزه ، وصولا الى كيفية جديدة تفى بمطالب واقع معاصر يعايشه ويعبر عنه ، (والشاعر بخاصة لا يعيش حياة منفصلة عن الماضى ، بل يستأنف حياته فى نفس الدروب التى سلكها أسلافه ، وقد أخذه التعب والنصب ، وفى باطنه حافز يحفزه على تحمل كل المشقات وتجشم كل الصعاب ، هو الأمل فى أن يكون أديبا مكملا لسابقيه) . [2] ويتطلب أمل التواصل هذا الوقوف ـ بصبر واناة ـ على ما خلفته أجيال الشعراء من تراث فنى ، وما أحدثوه عبر رحلتهم الطويلة والشاقة من اضافات أو تثوير فى بنية التشكيل أو فى بنية المعنى . فالفن اضافة ولا يحدث الشاعر عملا أصلا بدون ثقافة عميقة لموروثه الشعرى فهو الرحم الذى يتخلق فيه ، والنهر الذى منه يغترف ، وعلى ضفافه تترعرع مواهبه وملكات ابداعه . وقد الح الناقد العربى القديم على حاجة الشاعر المحدث الماسة الى الرواية والحفظ ، صقلا لمواهبه ، وسموا بحسه الفنى .

إذن فصلة المتأخرين بأسلافهم هى صلة طبيعية ، وتظهر هذه الصلة عند الشعراء بعامة ، ولكنهم يتفانون فى مدى الخضوع لسلطانها ، فهناك شعراء يمتلكون التراث ، وآخرون يمتلكهم التراث ، فالضرب الأول منهم

يكون الشاعر فيه انسانا ينتج شعرا متميزا ، وذلك بعد أن هضم التراث ووعاه ، واستطاع بعد ذلك أن يصل الى كيفية خاصة فى التعامل مع أداة عامة ، والشاعر من هذا المستوى يتجاوز التراث عادة ، فيضيف اليه جديدا . أما الضرب الثانى منهم (فقد يمتد تقديره لموروثه الشعرى من مفردات اللغة وقواعدها الى تراكيبها وأمثالها ، الى تشبيهاتها واستعاراتها ، حتى ينتهى الى فن الشعر بكل ما يشتمل عليه من أوزان وموضوعات وأخيلة ومعان) [٣] .

وحين يحصر الشاعر المحدث نفسه فى أغراض أسلافه وموضوعاتهم ، ويفرض عليه الالتزام بأساليبهم فى التعبير ، فلابد من أن يضيق المجال أمامه . وقد أفصح (ابن طباطبا) عن معاناة شعراء عصره بقوله : (والمحنة على شعراء زماننا فى أشعارها أشد منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا الى كل فن بديع ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة ..) [٤] .

فإذا كان الشاعر الجاهلى يقول :

ما أرانا نقول إلا معاراً
أو مُعاداً من قولنا مكرورا

فما بالك بمن تلاهم من الشعراء الذين كانوا ينظرون بعين التجلة والاعجاب والتقديس لذلك الموروث الشعرى ، وتقاليده الفنية الثابتة فى البناء والتشكيل . واينا لا يذكر استهجان الذوق الفنى العربى حين تجاوز أبو نواس تلك القيم الفنية ، وأعلن ثورته على بناء القصيدة ، والتى تمثلت فى خروجه على المطلع الطللى التقليدى ، ودعوته الى الرجوع للطبع لا الى التقليد ؟ أو حين تجاوز أبو تمام تلك القيم الفنية المألوفة فى تشكيل الصورة الشعرية ، فعد الأول شعوبيا ! وتأخرت ـ حينئذ ـ شاعرية الثانى ، فقدم عليه معاصروه من النقاد من هو دونه من شعراء العصر !

ويمكن القول بأن الشاعر العباسى قد سلك أحد طريقين : الأول التكرار الساذج الذى يسقط قيمته كشاعر مطالب بالابتكار ، والآخر التوليد الذى يخرجه من مأزق التكرار الى آفاق أرحب فيما يسمى (بحسن الاتباع) وهو أن يأتى المتكلم الى معنى اخترعه غيره فيحسن اتباعه فيه ، بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التى توجب للمتأخر استحقاق المعنى المتقدم على أن سالك هذا السبيل ـ سبيل التوليد ـ يحتاج الى ألطاف الحيلة ، وتدقيق النظر فى تناول المعانى واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها البصراء بها ، فينفرد بشرفها كأنه غير مسبوق اليها [٥] .

إن علاقة الشاعر العربى بتراثه علاقة قديمة قدم الشعر العربى ذاته ، فهذه العلاقة وان وهنت فى بعض العصور أو تغيرت صورها أو طبيعتها من عصر الى عصر ، فهى لم تنقطع أبدا ، حيث لم يكف الشاعر العربى فى أى عصر من العصور عن استرفاد تراثه واستلهامه على نحو من انحاء الاسترفاد والاستلهام ، ولم يكف نقدنا العربى أيضا منذ أقدم عصوره عن دراسة بعض صور هذه العلاقة فى اطار أو آخر .. وتحت عناوين متعددة مثل (السرقات الأدبية) و (المعارضات) و (التشطير والتربيع والتخميس) وغيرها .. وكل هذه نماذج لعلاقة الشاعر العربى بموروثه الشعرى والأدبى بعامة ، وهى كلها نماذج لمحاكاة التراث والأخذ منه ، دون محاولة لتطويره أو تنميته .. حيث كان التراث فى إطار هذه الصور من صور العلاقة هو النموذج المثالى الذى لا ينبغى للشاعر أن يتجاوزه [٦] .

وفى دراسة قيم التقليد عند الشاعر على بن المقرب العيونى (٥٧٢ - ٦٣٠ هـ) على مستوى التعبير والتصوير والايقاع [٧] . نقف على طبيعة علاقة الشاعر بموروثه الشعرى ، ونلاحظ فى تناولنا لقيم التعبير التقليدية أنه قد صدر فى نتاجه الفنى متأثرا بإطار ثقافى واسع يمتد قرابة سبعة قرون ، تأثر فيه بشعر الفحول من أسلافه ، بعد أن قرأ أشعارهم ووعاها ، وقد أسهمت هذه القراءة أو الاحاطة - دون شك - اسهاما حسنا ملحوظا فى تكوين شاعريته ، وفى تحديد أبعادها ... كما أن المعانى والصور التى أخذها ، هى من المعانى والصور الهامة التى تلتقطها الذاكرة باهتمام ، وتصهرها ، وتختزنها لتصبح جزءا من لا شعور الشاعر . كما جاء بعضها من قبيل توارد الخواطر بين الشاعر وسابقيه بحكم كرور الأيام وتشابه المناسبات ، ولا سيما (أن الشعر العربى - حتى عصر الشاعر - لم يتغير فى موضوعه ولا فى صورته ولا فى نوعه ، ولم يتغير فى لفظه ومعناه الا تغييرا قليلا جدا ، فقد بقيت القصيدة معتمدة على وحدة الوزن والقافية ، معنية بوحدة المعنى ، وبقى موضوع الشعر كما كان مدحا وهجاء ورثاء وغزلا ، وإنما تحددت هذه الموضوعات دون أن تتغير) [٨] .

وحين أمعنا النظر فى صور شاعرنا الفنية ، وجدناه يشكلها وفق نمط قديم موروث أرسى قيمه شعراؤنا الأول ، وليس هذا مدعاة للدهشة نظرا لثبات الأغراض التى طرقها شعراء بنى العباس ، كما طرقها أسلافهم ، ونجم

عن هذا الثبات استمرار الشكل النمطى الفنى ، (مما ساعد الشاعر على الاستمرار - دون حرج - فى نقل صور القدماء ابتداء فى ذلك من اعتماده على صورة الطلل فى مقدمة القصيدة ، وانتهاء بدوافعه الشعرية الى أغراض بعينها) [٩] .

لذا ظلت أشباح الصورة التقليدية الموروثة تلاحق ابن المقرب فى أغلب موضوعاته الشعرية ، وامتد تقديره للتراث من مفردات اللغة الى تشبيهاتها واستعاراتها ، حتى انتهى فيه الى رسم الصورة العامة . (وقد يمتد تقدير الشاعر للتراث بشكل طبيعى ، حتى ينتهى الى فن الشعر بكل مقوماته) [١٠] .

لذا وجدنا أن بعض الموضوعات القديمة ما زالت سائدة فى شعر العصر العباسى بسبب التقليد والمحاكاة فى الغالب واتجه الشاعر الى معالجة تلك الموضوعات على طرق المتقدمين ، فلطلل صورته النمطية ، وللناقة والرحيل عليها صورها المتشابهة ، وكذا فى وصف الرحيل وما ينشأ عنه من مثلهم العليا كالكرم والشجاعة والنجدة والوفاء وغيرها من مكارم يصور الشاعر اضدادها فى الهجاء . ويعد معظم شعراء بنى العباس - من حيث مذاهبهم فى النظم والأغراض الشعرية - امتدادا لاسلافهم من شعراء الجاهلية (لأن نهوض الأدب العربى لم يكن نوعا من النسيان للماضى أو التنكر له ، أو الغض من شأنه ، فالأمر واضح ، حيث ظل الشعراء يصطنعون لغة الاطلال ، ويبكون الديار ، ويذكرون منازل الأحبة بعد انقضاء العصر الجاهلى ، وظلت المادة التى يصنع منها الشعراء خيالهم متشابهة أو كالمتشابهة ، فالشمس والنجوم والجبال والوديان وانماط الشجر والظباء والأبقار والناقة والفرس والبحر والسفن ، كل أولئك وغيره كثير ، ظل مادة تفكير أدباء العربية عصورا طوالا ، فقد أرسى شعراء العصر الجاهلى دعائم هذه المادة الفكرية والجمالية [١١] .

ولم يقف تقدير ابن المقرب لتراث أسلافه عند محاكاتهم فى تعبيرهم وتصويرهم بل تجاوز ذلك الى موسيقاهم الظاهرة المتمثلة فى اطرهم الايقاعية وقوافيهم [١٢] ، فإذا به ينظم أكثر شعره فى بحر الطويل ، والبسيط ، والكامل ، والوافر ، وقد ظلت هذه البحور الأربعة - مضافا اليها بحر الخفيف موفورة الحظ فى كل العصور ، يطرقها كل الشعراء ، ويكثرون النظم فيها ، وتألفها آذان الناس فى بيئة اللغة العربية [١٣] ، كما نظم بقية شعره فى بحور يمكن - مع قليل من التسامح - ان تعد من

الأوزان المألوفة التى كانت الآذان تستريح اليها [١٤]

كما نلاحظ أنه قد نظم أكثر شعره فى حروف كثر دورانها وشيوعها فى الشعر العربى وهى : الميم ، واللام ، والباء ، والدال ، والنون ، والراء ، والعين .

وبعد أن المحت الى طبيعة علاقة ابن المقرب بتراثه الشعرى ، والتى ليست مدار حديثى فى هذا البحث ، أود أن أتوقف مليا عند جانب آخر من صلته بتراثه بعامة ، (وهى صلة لا تقل أهمية عن تلك العلاقة الضيقة التى دأب الدارسون على الوقوف إزاءها عندما يتصدون لدراسة شاعر عربى قديم ، بغية جلاء قيم التقليد والتجديد فى شعره . وكثيرا ما استوقفتنى تلك العناصر التراثية فى شعر ابن المقرب ، وهالتنى كثرتها أثناء دراستى لشعره ، وبعد فراغى منه . وكلما قرأت دراسة جديدة فى توظيف التراث العربى فى شعرنا المعاصر ، تداعت الى ذاكرتى تلك العناصر التراثية فى شعره) التى استمدها من مصادر عدة تاريخية ، وأدبية ، ودينية ، وصوفية ، واسطورية ، وأدركت أن ثقافة الشاعر لا تقف عند حدود استيعابه لتجارب اسلافه الشعرية على مستوى التعبير والتصوير والايقاع ، ووعيه بالتاريخ الفنى عند الجماعة للنوع الأدبى الذى يبدعه ، بل لابد له من وعى واستلهام معطيات تراثه التاريخية والفكرية والأدبية والروحية ..

فالمتأمل لشعر ابن المقرب يدهشه شيوع تلك العناصر التراثية فى فنه ، وكثرة دورانها والالحاح عليها ، مما لايدع مجالا للشك فى أن هذا الشاعر قد ألم بمصادر الثقافة العربية والاسلامية سواء فى بيئته (الاحساء) أو من خلال رحلاته المتكررة الى حواضر العراق واتصاله ببلاط الخلفاء والأمراء ، واحتكاكه بعلمائها . كما لا يفوت المتأمل لشعره تقدير الشاعر للطاقات الايحائية فى تراثه ، وادراكه لقدرة معطيات تلك العناصر التراثية على الايحاء بمشاعره وأحاسيسه ، وقدرتها على التأثير فى نفوس المتلقين ، حيث تعيش تلك المعطيات فى وجدانات الناس وأعماقهم تحف بها هالة من القداسة والإكبار لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكرى والوجدانى والنفسى . (والشاعر حين يتوسل الى الوصول لوجدان أمته بتوظيفه لبعض مقومات تراثها يكون قد توسل الى هذا الوجدان بأقوى الوسائل تأثيرا عليه) [١٥] .

فحين أراد ابن المقرب أن يصور تجربته مع أبناء عمومته ، حين أوجسوا خيفة من سمو همته ،

وتـأبيـه ، ورفضـه لسيـاستهم الضعيفة ، فأساءوا اليه ، وزهدوا فيه ، وسجنوه ، وجردوه من أملاكه ، ونفوه الى العراق ، قـال شاكيـا معاتبا : (١٦) .

فإنْ ساءنى منهم على القُرب معشرٌ
وأصبـح مـن تلقـائهـم مـا أكـابـدُ
فقـد بـاعتِ الأسبـاطُ قبلى أخـاهُمُ
ببخسٍ وكـلٌّ منـهـمُ فيـه زاهـدُ

فهو يوظف معطيات الآية القرآنية الكريمة (٢١) من سورة يوسف (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) .

ونجده فى موضع آخر يلجأ الى أحداث التاريخ العربى ليجعل من بعضها تجارب موازية لتجربته مع قومه ، ويتخذ منها عـزاء لنفسه فيقول : (١٧) .

فـلا تحسبُ الأعـداءُ انى لمـاجرى
تَضَعْضَعْتُ أو أعطيتُ حبلى مُشَاغبا
فقبلى قضى النُّعمان فى السّجن نحبَهُ
وغُـودرَ مسلوبـاً وقـد كـان سـالبـا
وعاش ابنُ ذى الجدين فى الغلِّ بُرهةً
ليـالى يـدعـو قـومَـه والعصـائبـا

فهو يشير هنا الى تجربة النعمان بن المنذر (أبو قابوس) - وهو من أشهر ملوك الحيرة فى الجاهلية - مع كسرى (ابرويز) حين نقم عليه فعزله ونفاه الى خانقين ، فسجن فيها الى أن وافته منيته . ويكرس هذه الموازاة برسم خط آخر مستلهما تجربـة أخرى ، وهى تجربة بسطام بن قيس بن مسعود الشيبانى ، سيد شيبان ، وهو من أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، أدرك الاسلام ولم يسلم ، وذكره الجاحظ فى حديثة عن الفارس يبلغ الغاية والشهرة ولا يرزق ذلك الذكر ، والتنويه ببعض من هو أولى منه ، ثم يقول : وهم يضربون المثل بعمرو بن معد يكرب ولا يعرفون بسطام بن قيس .

وفى معرض شكواه وعتبه ونصحه يتكىء على بعض العناصر التراثية التى استقرت فى وجدان الجماعة متصلة بأمثالهم الشعبية الدارجة ، فانظر اليه كيف يعبر عن ندمه على مدائحه التى دبجها فى أبناء عمومته ، وأدرك أنـه قد وضعهـا فى غير موضعها ، فيقول : (١٨) .

فـآه مـن زفـراتٍ كلمـا صَـعَـدَتْ
فى الصّدر كادتْ تورّى النارَ من ضِلَعِى
يسـوقُهـا أسفُ قـد ثـارَ من نـدمٍ
يُرْبى على نَـدَمِ المغبونِ من كُسَـعِ

ويتنكر أبناء عمومته لما بينهم وبينه من قربى وصلة رحم ، فيقول : (١٩) .

أرحـامُنـا مـن يـومِ غُيِّبَ جَـدُّكُمْ
فى رمسـه مقطـوعـةٌ لـم تُـوصَـلِ
حتـى كـأنّـا مـن جُـهينـة أصلُنـا
لاوُلْـدَ عبـد الله نحـنُ ولاعـلى
ولِـمَ الـعـدُّو يـروحُ قِـردَ زُبَيْـدَةٍ

شَبَعاً ومُصْفِى الوُدِّ كلبةَ حَوْمَلِ

وأنظر اليه كيف يعرض بخصومه من خلال استغلال المثل العربى - حيث يقول : [٢٠] .

عن الرُّشْدِ أَهْدَى من سطيحٍ وكُلُّهُمْ
الى الغَيِّ أعدى من سُلَيْكِ المقانِبِ

وقد يتخذ من الأسطورة والمثل معاً وسيلة فنية للتعريض بخصومه ، فيقول : [٢١] .

ورا مُتُمُونى كُلَّ ذى عَيْدَ هيَّةٍ
بَعيدَ الرِّضا إن أعطِهِ الحقَّ بَرْشمَا

يرى نفْسَه عُوجاً ولولا استماعُكُمْ
أباطيلَهُ كان المَهينَ المُقْرَمَا

أقولُ لَهُ أنتَ الرّشيدُ وقد أرى
قداراً بِعَيْنى فى قباهُ ومَنْشَما

وينصح قومه أن يلتفوا حول أميرهم ، ويحذرهم من مغبة الخروج عن طاعته ، مستلهما فى ذلك حمق ابى غبشان ، فيقول [٢٢] .

وارضُوا رضاهُ فإن ساخِطَ أمرِهِ
منكم لَأَخْسَرُ من أبى غُبْشَانِ

وعاش ابن المقرب حياته ناصحا شفيقا لقومه ، ومحذرا اياهم من الأخطار التى تحيق بهم ، والمؤامرات التى تحاك لهم ، ولم يثنه عن ذلك سجن ولا نفى أو تشريد ، فقد ظل ملتزما بموقفه الوطنى ، ولكن يبدو أن الداء قد استشرى الى الحد الذى لا ينفع معه تحديد الداء ووصف الدواء ، فيتخذ الشاعر من حدث تاريخى ضخم مقابلا لواقعه فيقول : [٢٣] .

وإنّىَ فى قومى كعمرو بن عامرٍ
ليالىَ يُعْصَى فى قبائلِهِ الأَزْدِ

أراهم أماراتِ الخرابِ وما بدا
من الجُرَذ العيَّاثِ فى صخرِها الصّلْدِ

فلم يَرْعَوُا مع ما لقوا فتمزَّقُوا
أيادى سَبَا فى الغورِ منها وفى النَّجْدِ

خليلَىَّ مادارُ المذلّةِ فاعلما
بدارى ولامِنْ ماءِ اعدادِها وِردى

فيجعل الشاعر من تجربة عمرو بن عامر الأزدى مع قومه مقابلا لتجربته مع قومه العيونيين ، وعمرو بن عامر بن حارثه الغطريف الأزدى ، الملقب بمزيقاء ملك جاهلى يمانى من التبابعة ، كان له تحت السد بمأرب من الحدائق مالا يحاط به وقد أهمل أمر السد فى أيامه فخرب ، وبدأت هجرة الازد من تلك الديار ، وتفرقوا فى شمال الجزيرة العربية .

ويحاول الشاعر أن يلهب مشاعر قومه ، وأن يحرك خامد الهمم فى نفوسهم ، لعلهم يتخذون موقفا يحقق لهم العزة والكرامة ، فيعود الى تراثه القومى ليتخذ من أحد رموزه قدوة ومثلا ، فيقول : [٢٤] .

فعزْماً فموتُ العز عند ذوى النهى
حياةٌ وعيش الذُّلِّ موتٌ بلا غُسْلِ

فقد يُنكر الضّيمُ الكريمُ بسيفِهِ
إن اسطاع أو بالشّدقميّة والرَّحْلِ

كما فَعَلَ العبْسىُّ قيسٌ وإنمَّا

أخو الهمةِ العليا أخو الحَسَبِ الجزْلِ

ويفقد الشاعر الأمل بقومه وهو يرى صور الاستسلام تتلاحق ، وأمارات الوهن تتفاقم ، فيتوجه اليهم ناصحا أن يجلوا عن موطنهم ، ويضع بين أيديهم تجارب مماثلة من تاريخ أمته حين جلا الازد عن موطنهم ، فبقوا ملوكا فى مواطنهم الجديدة ، وحين أبت عبد القيس أن تتحول عن موضعها فى البحرين بعد أن تفرقت كلمتهم وكثرت بينهم الحروب فضعفوا ووهنوا فوثب القرمطى أبو سعيد الحسن بن بهرام فاستولى على موطنهم وأذلهم وأحرق بعضهم ، فيقول مخاطبا قومه (٢٥) .

فاجْلُوا فما أنتم بأوّلِ من جلا

واختار أوطاناً على الأوطانِ

فالأزْدُ أجْلَوا قبلكم عن مأربٍ

وهُمُ جبالُ العزِّ من كهلانِ

فبقَوْا ملوكاً بالعراقِ ويثربٍ

والشامِ وانفردوا بمُلْك عُمانِ

إنّى لأخشى أنْ تُلاقوا مثلما

لاقى بَنُو العيّاشِ والعُرْيانِ

كرِهوا الجلاء عن الدّيارِ فأُهلكوا

بالسّيفِ عن عَرَضٍ وبالنيرانِ

وعلى الرغم من رحلات الشاعر المتعددة الى العراق بعيدا عن موطنه إلا أنه كان يضع عينا على حواضر العراق ، وأخرى على واقع الحياة فى البحرين ، وراصدا بوعى شديد تطور الأحداث هناك ، وما بلغته همم القوم من الفتور والموات ، فيعود اليهم معرضا بهم صراحة لا تلميحا ، واستمع اليه معبرا عن هوان الجماعة من خلال مدحه لأميرهم ابى ماجد محمد بن على العيونى ، وانظر كيف يستغل عناصر التراث ليوحى من خلالها عن غياب القيم النبيلة عند الجماعة ، فيقول : (٢٦) .

يا ضيعةَ العُمْرِ فى قومٍ تخالُهُمُ

ناساً ولاغيرَ أثوابٍ على صورِ

لو أنّ ذا الحلم قيساً حلّ بينَهُم

لودَّ منهم ذهابَ السمعِ والبصرِ

ولو يُعمّرُ نوحُ فيهمُ سنةً

لقالَ ياربّ هذا غايةُ العُمُرِ

فآهٍ منّى بحجّاجٍ يزولُ به

ما كان من عُجَرٍ عندى ومن بُجَرِ

ويضيق أبناء عمومته عليه فيمد بصره الى العراق عله يجد فيه ما يلبى حاجاته النفسية وطموحاته العريضة ، فيقول معبرا عن تجربته تلك ودواعيه الى هجرة الأهل والوطن : (٢٧) .

ولاتَكُ مئلافاً لدار مذلّةٍ

ولو فاضَ واديها لُجَيْناً وعَسْجَدا

وسِرْ فى طِلابِ المجدِ جداً فإنّنى

رأيتُ المعالى لايواتين قُعْدُدا

فلولم يفارق غمدَه السيفُ فى الوغى

لما راح يُدْعى المشرقَّ المُهنّدا

ولولا انتقالُ البدرِ عن برجه الذى
به النقصُ لم يدركْ كمالاً وأسْعدا
ولو نامَ سيفُ بالحصيبِ ولم يلجْ
على الهَوْل لم يُدْعَ المليكَ الممَجّدا
ولم ينشعِ الأحبوش كأساً مريرةً
ويجمعُ فى غُمْدانَ شملاً مُبَدّدا

فهو يومىء - بعد صورتين حسيتين جاء بهما لتبرير موقفه - الى حدث تاريخى هام متخذا منه مماثلا لتجربته ، وذلك حين استولى الأحباش على اليمن فى القرن السادس الميلادى ، فنهض سيف بن ذى يزن الملك الحميرى فقصد قيصر الروم فلم ينصره ، فاتجه الى فارس فأمده كسرى أنوشروان بمدد من الرجال أعاد به ملك بيته .

وقد يشير الى الظلم الفادح الذى وقع عليه بتجريده من أمواله ، والاستشهاد بقارون بن قاهث الفرعونى صاحب الثراء الواسع ، وانه لوحل بالاحساء لغادرها صفر اليدين ، فيقول : (٢٨) .

وأهجر دارا لو يحل ابن قاهث
بها راح مسحوتا من المال مجحدا

وشعر ابن المقرب حافل بمثل هذه العناصر التراثية من الأحداث الهامة والأعلام التى استقرت فى وجدان أمتنا رموزا رفيعة لكل القيم العربية النبيلة ، وكان لهذا الاحتفال أثره فى إثراء معانيه فى أوسع مجالاته الشعرية وبخاصة المديح والفخر والحماسة والرثاء والهجاء ، وقد لاحظنا استلهامه لبعض تلك التجارب والرموز فى جانب من صوته الذاتى المتمثل فى شكواه وعتبه .

وقد استأثر المديح عنده بزخم هائل من تلك الرموز ، حيث كان يعمد الى المقابلة بين ممدوحه وبعض الشخصيات العربية والاسلامية من اعلام التراث ، إذا ما أراد أن يرسم صورة مثالية لممدوحه موشاة بتلك الخطوط التراثية الاثيرة فى الوجدان العربى ، فاستمع اليه مادحا أمير البصرة شمس الدين باتكين : (٢٩) .

ومَنْ ينزلْ بشمسِ الدينِ يصحب
على العلاّتِ بسّاماً جوادا
يجالسُ منه قعقاعَ بن شَوْرٍ
وكعباً مُلبِسَ النُّعْما إيادا

ومثل هذا قوله مادحا : (٣٠) .

إقدامُ جسّاسٍ وعزّةُ هانىءٍ
وعفافُ بسطامٍ ونفسُ عصام

والشاعر يعيد على مسامعنا اصداء بيت ابى تمام المشهور من حيث التشكيل وحشد مثل هذا العدد من مشاهير التراث واعلامه ، حيث يقول :

إقدامُ عمرٍو فى سماحة حاتم
فى حِلم أحنفَ فى ذكاءِ إياس

ولكن تشكيل مثل هذه الصورة القائمة على التماثل والمشابهة بين

ممدوحه وتلك الاعلام قليلة فى شعره ، إذا ما قيست بتلك الصورة الشائعة عنده فى رسم صورة ممدوحه ، المتمثلة فى تجاوز ممدوحه لتلك الرموز ، التى وقرت فى وجدان الجماعة مثلا عليا ، ونماذج سامية محتذاة ، وقدوة رفيعة تتطلع همم الرجال الى مساماتها ، وترسم خطواتها على طريق الشرف والفضيلة ، ففى مديحه للخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) يقول : (٣١) .

إذا العربُ العرباءُ يوماً تَفَاخَرَتْ
بذى العزّ من ساداتها والقمائِمِ
وجاءوا بقيسٍ وابنِهِ وبمعبدٍ
وكعبٍ وأوسٍ وابنِ سَلْمى وحاتِم
سماهُمْ جميعاً ثم لَمّتْ بفترةٍ
الى جودِ بحرٍ منكُمُ متلاطِمِ

ومثل هذا قوله مادحا : (٣٢) .

علاقِ النّدى أوساً وفى الزّهدِ والتّقى
أُويْساً وفى الحلم ابن قيسٍ أبابحرِ

ومنه قوله فى مديح أحد أبناء عمومته العيونيين : (٣٣) .

إذا صالَ لم يُعدَل بقيسِ بن خالدٍ
وإن قال لم يُعْدَل بسعد بن مالكِ
وإنْ جاد بذّ المرثديّين جُودُهُ
وأنْسَى بنى الآمالِ جودَ البرامكِ

وتأمل كيف يستلهم مواقف العزة والكرامة فى تاريخ أمته ، ورفض العربى للضيم والمذلة ، فيقول مادحا أميرا عيونيا : (٣٤) .

أحمى من المرءِ جسّاس بن مُرّةَ إذْ
أردى كُلَيْباً بعزمٍ غير ذى فشلِ
لم يقبل العارَ فى ضيمِ النّزيل ولم
يقنعْ بنقصٍ ولم يحتجُ بالعِلَلِ

وكأن الشاعر يحذر أبناء عمومته من مغبة الإجحاف فى حقه ، ولا سيما أنه قد شفع هذين البيتين بصورة نادرة للعدالة ، ولكنه يسترفدها هذه المرة من تراث أمة أخرى ، فيقول : (٣٥) .

أحنى وأعْدَلُ من كسرى غداةَ رمى
بالسّهم قلبَ ابنِهِ فى الحقّ لم يُبَلِ

ويحلو لابن المقرب أن يكرر بعض الاعلام فى صور المديح ، لكنه يحرص كل مرة أن يضيف جديدا ، مثل قوله : (٣٦) .

يقصّرُ حاتمُ فى الجودِ عنهُ
وكعبُ والبرامكةُ الكرامُ
وعمروٌ فى اللقاءِ عليه كَلٌّ
وعوفُ فى الوفاءِ له غُلامُ

وقوله مادحا النقيب تاج الدين اسماعيل بن النقيب : (٣٧) .

فلو انَّ قُساً فى الفصاحةِ رامَهُ
لأكْدَى ولانهارَتْ عليه المباحثُ
يقرُّ له فى الجود كعبٌ وحاتمٌ
وفى الحِلم والإقدامِ قيسٌ وحارثِ

والملاحظ أنه كان يحرص إذا مدح أحدا من رجال الدين والعلم أن يستدعى تلك الشخصيات الخالدة فى الزهد والتصوف والفقه وعلوم الدين

وعلم الكلام .. ومثل هذا قوله مادحا الشيخ محب الدين الواسطى الشافعي : (٣٨) .

أحيَيْتَ بشْراً والجُنَيْدَ وعامِراً
زُهْداً وكُلٌّ إذْ يُعَدُّ إمامُ
وأقمتَ للقُرشيِّ فى أرائِهِ
حُجَجاً يُقَصِّرُ دونَها النَّظَّامُ
لورادَكَ الثوريُّ أعلنَ قائِلاً
أنتَ الغَمامُ ومَنْ سواكَ جَهَامُ

وقوله : (٣٩) .

ومن يَلْقَ ابراهيمَ يَلْقَ ابنَ تارحٍ
أخى العزْمِ فى نُسْكٍ وعَزْمِ خلالِ
ويلْقَ ابنَ يعقُوبَ المكرَّمَ يُوسُفاً
نبيَّ الهُدَى فى عِفَّةٍ وجمالِ

والمتأمل لمديح ابن المقرب تدهشه ثقافة الشاعر ووعيه بهذه العناصر التراثية ، واحاطته بمشاهير الاعلام من ربيعة بخاصة فى كل ميدان وفن ، وكأنه يزهو بانتسابه اليها ، كما يدل بعروبته وما احتفظت به ذاكرة هذه الأمة من أمجاد وتجارب انسانية تعد كنوزا نفيسة عبر العصور ، يحق لأبنائها أن يتغنوا بها ، وأن يقيسوا هاماتهم بشوامخها ، وأن يقابلوا تجاربهم بتلك التجارب الخالدة فى الوفاء والاقدام والكرم ...

فابن المقرب حريص على أن يصل حاضره بماضيه ، أو قل هو حريص على أن يمتد الماضى فى الحاضر من خلال المقارنة بين ممدوحه ورموز تراثه ، وهى مقارنات ومقابلات يلح عليها ولا يملها فى مدائحه ، ويعدها انغامه الاثيرة التى تحرك شاعريته وتثريها بالمعانى والصور فى الوقت ذاته ، واورثة هذا العزف على هذه الأوتار أنغاما متميزة وصيغا لغوية مألوفة ، ولنستمع اليه مادحا لنرى كيف يصدر أبياته (بأفضل التفضيل) ، وهو بصدد عقد تلك المقابلات بين ممدوحية وتلك السلسلة من قمم تراثه : (٤٠) .

أعزُّ وأوْفى من عُمَيْرٍ وحارثٍ
وأكرمُ من كعبٍ وأوسٍ شمائِلا
وأصدقُ بأساً من كُلَيْبٍ إذ غدا
يجرُّ الى حَرْبِ الملوكِ الجحافِلا
وأحلمُ من قيسٍ إذا الحِلمُ لم يَرُحْ
يُطوقُ عاراً أو يُموّقُ جاهِلا
وأمنعُ جاراً من يزيدٍ وهانئٍ
وجساسٍ السّاقى حَسَا الموتِ وائِلا

وقوله فى موضع آخر : (٤١) .

ماحلْمُ قيْسٍ ماوفاءُ سَمَوْءلٍ
ماجُودُ أوسٍ ماشجاعةُ جَحْدَرِ
أبى وأمنعُ جانباً من هانئٍ
أيامَ يمنعُ خلفَهُ ابنَ المُنْذِرِ
وأشدُّ بأساً من كُلَيْبٍ إذْ سَطَا
بالسّيفِ يجتَثُّ الذُّرى من حِمْيَرَ
وأعزُّ جاراً من فتى بَكْرٍ وقد
نزلَتْ بساحتِهِ عقِيلَةُ مِنْقَرِ

وتشكل تلك العناصر التراثية فى فخر ابن المقرب رافدا هاما ، وخطا

واضحا ، فإذا ما افتخر بنفسه أو بقومه تداعت اليه أسراب منها ، تسعفه وتلبيه بمدد غزير من المعانى ، مثل قوله : (٤٢) .

بيتُ الرئاسةِ لى وحكمةُ دغْفَلٍ
وبيانُ سحبانٍ وشعْرُ الأخطلِ

وقوله : (٤٣) .

وعندى لشانيها سيوفٌ ثلاثةٌ
لسانٌ ورأىٌ لا يفلُّ ومِخْذَمُ

فقد آثر أن يضفى على سيفه الثالث دلالة المضاء وسرعة القطع ، فجعله (مخذماً) ، وهو سيف ارتبط ببطولات فارس عربى معروف ، هو الحارث بن ابى شمر الغسانى .

وقوله فى موضع آخر مفتخرا بنفسه : (٤٤) .

أُريهم منطقاً عيّاً وإنّى
لأفحِمُ فى بلاغته زيادا

وانظر كيف يستلهم هذه الرموز - أحيانا - حين تأتى ممثلة لذروة تيار الفخر بالنفس ، حيث يقول : (٤٥) .

ياجُفُونى طلّقى عنكِ الكرى
إنّما طيبُ الكرى بعدَ السُّهادِ

ما الذى يقعدُنى عن همّتى
والمنايا رائحاتٌ وغوادِ

لأقيمنَّ لابناء الوغى
سُوقَ اقدامٍ وطعنٍ وجلادِ

إنْ يكُنْ عِزّاً وإلا فردى
لستُ من دُونِ شبيبٍ ومصادِ

فالشاعر يستلهم دلالةً علمين باذخين فى الدهاء والطموح والثورة ، ولا يخفى مدى تقدير الشاعر لمثل هذه الأمور الثورية الطموحة ، ومجيئها على هذه المشاكلة بعد هذا المد من الفخر العالى بالنفس ، يشى بما يكنه الشاعر من رغبة فى التوثب والثورة والتطلع الى الزعامة .

ويعاتب الشاعر ابن عمه الأمير فضل بن محمد العيوني ، ويوجعه لوما وتعنيفا ، وتتجسد جراحات النفس النازعة امثالا مؤلمة ، وحكما صائبة يبلور فيها خلاصة تجربته الذاتية مع أهله المتمثلة فى موقفهم المنكر لحقه ، الغاض من مكانته ودوره ، ويبدى أسفه الشديد لمدحهم ، ويرى نفسه وهمته أكبر وأسمى من أن يجالس أمثالهم ، فهو حقيق بأن يجالس ويصحب ويمدح رموز الشرف والاباء العربى ، فيقول : (٤٦) .

ندمْتُ على مدحى رجالاً وسرّنى
بأَنْ ضَمَّتنى قبل ذاك الملاحِدُ

وحُقَّ لمثلى أن يموتَ ندامةً
إذا أُنشِدَتْ فى الناسِ تلك القصائدُ

ألاليتَ شعرى هل أجالسُ فتيةً
نماها الى العلياءِ قيسٌ وخالدُ

وهل تصحبَنّى من شُرَيْكٍ عصابةٌ
لها طارفٌ فى كل مجدٍ وتالدُ

غَراعِرُ لم تحلُلْ ديارَ ابن منذرٍ
فتُلْقى الى الأعداءِ منها المقالِدُ

ويقابل هذا الصوت الذاتى فى

ديوانه صوت قبلي يتكىء فيه على تراث تاريخي يتسع لامجاد قومه فى الماضى الموغل فى القدم ، وفى الحاضر القريب ، فيقول من قصيدته التى يعارض فيها عينيه قطرى بن الفجاءة المشهورة : (٤٧) .

فإنّ سيوفنا ما زال فيها
شفاءٌ للرؤوس من الصّداعِ
يُخبّرُ تُبّعُ عنها وكسرى
بذا والمنذرانِ وذو الكلاعِ

والملاحظ أن الشاعر فى فخره الذاتى كان يقوم بانتقاء حر لعناصر التراث التى يسترفدها من اطاره القبلى أو العربى . أما فى فخره القبلى فكان يصدر عن وعى بدقائق التاريخ المتصل بربيعة فى الماضى والحاضر ، وقد استوقف هذا الحس التاريخى عنده عددا من الباحثين (٤٨) ، أمثال الدكتور شوقى ضيف فى مقالته الضافية تحت عنوان (سجل شعرى تاريخى فريد) والمستشرق الهولندى دي جويا فى بحثه الخاص بتحديد نهاية القرامطة ، وغيرهما .

ولعل الصوت القبلى لم يبلغ مداه فى ديوان الشاعر كما بلغه فى قصيدة له يمدح فيها أميره الأثير محمد بن ابى الحسين العيونى ، والذى تذكرنا علاقته به بعلاقة المتنبى بسيف الدولة الحمدانى . فبعد مقدمة طلية تقليدية يبدأ فخره القبلى بقوله : (٤٩) .

فقومى الألى اَجْلَوْا قُضاعةَ عَنْوةً
ودانَتْ لهم كَلْبُ ونهدُ وخولانُ
وهم فلّقوا هامَ التّبابعِ إذْ طَغَتْ
يُقِرُّ به وادى خُزازى وسُلاّنُ

ويمضى مسترفدا لهذا التراث التاريخى ، ويطول فخره ، وحسبنا منه قوله : (٥٠) .

وعادَتْ بهم من دهرهم اَلُ منذرٍ
فصانَهُمُ حامى الحقيقةِ صوّانُ
ولم يحْمِ كسرى من حُدودِ سيوفهمْ
لُيوثُ لها بالجو زأرٌ ورُور انُ
وهُمْ ملكُوا أكنافَ نجدٍ وطأطأتْ
لعزّتِهمْ بالشامِ عمرٌو وغسّانُ
وسارتْ الى البحرينِ منهُمْ عِصابةٌ
مصاليتُ غاراتٍ مغاويرُ غُرّانُ
فعن هَجَرٍ ذادوا القرامطَ عَنْوةً
وقد شَرِكَتْ فيها عتيكُ وحُدّانُ
وساروا الى أرض القطيفِ فلم يكُنْ
ليمنَعَها منهمْ حُصونُ وحيطانُ
ولم تمتنِعْ منهُمْ أوالُ بمُزْبِدٍ
من اليَمِّ تُزْجيهِ شمالُ ومَرْخانُ

ومثل هذا قوله من قصيدة يمدح فيها الأمير فضل بن محمد ويرثى والده محمد بن ابى الحسين : (٥١) .

نماك للمجدِ آباءٌ بهم شَرُفَتْ
ربيعةُ الغُرّ عدناناً وقحطانا
قومُ هُمُ ثأروا حُجْراً وهُمْ اَسَرُوا
عَمْراً وهُمْ قَهَروا ذا التاج صُهْبانا
وهُمْ أباحُوا حِمى كِسرى وهُمْ قتَلوا
هامُرْزَ واستَنْزلُو الأسوارَ مَهْرانا

وانظر اليه كيف يستغل درايته بأنساب الخيل للايماء الى رموز الفروسية والبطولة فى التاريخ العربى ، فيقول مفتخرا : (٥٢) .

إذا مادَعَوْتُ ابنَىْ نزار أجابنى
كتائبُ أنكى فى العِدَى من يَدِ الدّهرِ
تداعى الى صوتِ المُنادى تداعياً
كدفَّاع موجٍ جاء فى المدِّ للجَزْرِ
على كلِّ ذيّالٍ وجرداءِ شِطبَةٍ
تجىء كسيْلٍ يلطمُ الطَّلحَ بالسِّدْرِ
نتاجُ عُمَيْرٍ والضُّبَيْبِ وكامِلٍ
وذاتِ نُسُوعٍ والنعامةِ والخَطْرِ
ورثن عن الشيخين بكرٍ وتغلبٍ
وعن عبدِ قيسٍ ذى العُلَى وعن النَّمرِ
وقيسٍ ابى الشُّم الطِّوال وبعدهُ
تميمٍ وأكرِمْ والداً بأبى عَمْرو
وعن سيِّدىْ آباء كلّ قبيلةٍ
وأشرفِها نسْلاً خُزَيْمَةَ والنَّضْرِ

ومثل هذا الصنيع قوله : (٥٣) .

إذا شئْتُ لبّى دعوتى كلُّ ماجدٍ
يُعَدُّ ليوْمَىْ نائِلٍ ونِزالِ
جبالٌ إذا طاشَتْ حلُوم بنى الوغى
رواس ولكنْ فى شُخُوص رجالِ
نتاجُ ابن حلّابٍ وقَيْدٍ ولاحقٍ
وغلِّ المَذاكِى كامِلٍ وعُقالِ

وكان ابن المقرب يعرف كيف يوجه هذه المادة التراثية الغزيرة ، ليستثمرها فى رثائه ، فيتحول رثاؤه ـ أحيانا ـ الى ومضات تاريخية رائعة ، تحكى نهاية أبطال وأمم ملأوا الدنيا ببطولاتهم ومآثرهم ، ثم طواهم الردى . والشاعر يرمى من خلال ذلك الى استلهام العبرة والعظة ، وخير ما يمثل ذلك ميميته فى رثاء أحد أصدقائه والتى مطلعها : (٥٤) .

أيدى الحوادثِ فى الأيامِ والأُممِ
أمضى من الذّكَرِ الصّمْصامَةِ الخَذِمِ

والتى يقول فيها :

أين الملوكُ وأردافُ الملوكِ ومَنْ
سادَ القبائلَ من عادٍ ومِنْ إرَمِ
وأين طسْمُ وأولادُ التبابعِ مِنْ
أولادِ حمْيَرَ والسّاداتُ من عَمَمِ

ويمضى على هذا النحو حتى نهاية القصيدة على امتداد واحد وعشرين بيتا ، يومىء فى اشارات مكثفة الى سلسلة طويلة من الأبطال ممن طواهم الموت ، ووضع نهايته الحتمية لتألق نجمهم ، ومنها قوله : (٥٥) .

أرْدَى ابنَ مُرَّةَ هَمَّاماً وكان لَهُ
عَقْدُ الرئاسةِ عن آبائِهِ القِدَمِ
ومانعَ الجار جسّاساً أُتيحَ لَهُ
سَهْمُ المَنُونِ على عَمْدٍ فلم يَرُمِ
والحوفزان الذى كانت تنوء به
بكر سقاه بكاسات من النقم
وفارس العرب العرباء إن ذكرت
بسطام مد اليه كف مخترم

وحين يموت (مذكور) ابن عم الشاعر بطعنة رجل من عامة الناس ، يرثيه ابن المقرب بقصيدة تفيض ألما وحزنا ، ويعود الى تراثه باحثا عن

تجارب مماثلة لمقتل ابن عمه ليجعل منها عزاء وسلوى لاهله ومحبيه، وليحول دون شماتة اللامزين لهذه الميتة، فيقول : (٥٦) .

وما قتلُهُ ممّا يُعابُ بهِ الفتى
إذا عُدَّ يوماً بين شيبٍ وشُبَّانِ
فقد ماتَ بسطامُ بطعنةِ عاصمٍ
وكان المُرَجَّى في مَعَدّ بنِ عدنانِ
كذا ابنُ حواريّ الأميرِ مُحَمّدٍ
أتاهُ الرّدى من كفّ راعٍ لرعيانِ

وتتجاور - أحيانا - فى مديحة وفخره عناصر تراثه العربى والاسلامى وعناصر أخرى من التراثين الفارسى واليونانى، وكان يتخذ من كسرى الفرس واسكندر اليونان مثلين عاليين فى العدل والحنكة السياسية، وتتكرر فى شعره صورة مقابلة أو مماثلة ممدوحية بهما، والملاحظ أن أكثر ما يأتى ذلك فى ثنايا مدائحه لأمراء العراق ممن ينحدون من أصول غير عربية، فيمدح شمس الدين باتكين الرومى أمير البصرة، فيقول : (٥٧) .

أَحْيَيْتَ حِلمَ ابنِ قيسٍ فى سيادته
لكن قرنتَ به إقدامَ جسّاسِ
وعدْلَ كسرى وإفضالَ ابن حارثةٍ
أوسٍ وعلمَ الفتى الحبر ابن عبّاسِ

ويمدحه فى موضع آخر فيقول : (٥٨) .

ياباشجاعٍ ياثمالَ الورى
يا طاهراً من كلّ ذَمٍ وذامْ
ياشِبه ذى القرنين من رهطهِ الغُرِّ
بنى العيصِ الملوكِ الكرامْ

ويقول مادحا أمير الموصل بدر الدين لؤلؤا : (٥٩) .

أرسى قواعِدَ مُلْكٍ لويُدبِّرُهُ
كسرى وإسكندرٌ أعيتهمُ الحِيَلُ

وقد يستغل هذه الرموز غير العربية فى مديح أمير عيونى، مثل قوله فى مديح أحد أمراء الدولة العيونية : (٦٠) .

وإذا احتبى وسط الندى رفَعْتَهُ
عن أنْ تشبّهَهُ بِنُوشروانِ

ويقول فى مديح أمير عيونى آخر : (٦١)

حِلمُ ابنِ قيسٍ فى سماحة عمّه
معنٍ ويُمْنُ اسكندرِ اليونانى

وربما يوظفها فى فخره أيضا، مثل قوله :

فعُدْنا ببيضٍ ذكّرتْهُمْ حُدودُها
بما كان من أخبار كسرى ورُستمُا

وقد تلقانا هذه الصورة أيضا فى تعريضه بواقعه، حيث يقول :

ومن الشّقاءِ إقامتى فى بلدةٍ
لله جَدُّ عدوّها ما أسْعَدَا
لوحلَّها كِسرى لقالَ لما يرى
نفسى لمن يبغى الخرابَ لها الفِدا

وبعد هذا العرض لمجالات استلهام ابن المقرب لعناصر التراث فى شعره نود الاشارة الى أننا لم نقم بحصر كل

مواضع استخدامها فى شعره ، فهذا أمر يطول الخوض فيه ، لكثرة دوران هذه العناصر فى شعره وشيوعها على نحو يشكل ظاهرة فنية بارزة عنده ، وتمثل عونا للباحثين على تحديد الاطار المعرفى للشاعر ، وتحديد ألوان الثقافة السائدة فى بيئته . ويبدو جليا لمتأمل هذه المادة التراثية صلة الشاعر القوية بأحداث التاريخ العربى وتفاصيله الدقيقة عبر العصور ، ووعيه بصناع تلك التجارب القومية والانسانية ، التى لها صفة الديمومة ، وادراكه لمدى تقدير الجماعة لهذه المادة إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن الفن دوما يعمل على تلبية المطالب الروحية والنفسية والفكرية للجماعة . ولعل استثمار ابن المقرب لهذه المادة التراثية واستيحاءها فى مجالات شعره الهامة كان عاملا هاما فى رفده بهذه القيم المعنوية ، التى اكسبت فنه ثراءه وخصوصيته وقدرته على التوهج والعطاء ، مما يجعلنا نقول بأنه شاعر كبير فى زمانه ومكانه ، وبأنه حقيق بتسمية (متنبىء الخليج العربى) . وبأن قارىء ديوانه لابد له من الاستعانة بكتب انساب العرب وأيامهم وأمثالهم وفتوحهم ، وبعض مصادر انساب الخيل ، ولابد له من معاودة تراجم بعض الاعلام فى كتب الطبقات وغيرها .

والسؤال الذى يطرح نفسه ، ما سر الحاح ابن المقرب على استدعاء واستلهام تلك الاعلام المعروفة ، والاحداث الهامة من تراثه ؟

ليس من شك فى أن توظيفها فى شعره ، يأتى فى سياق محاولاته كشاعر مبدع فى البحث عن وسائل تعبيرية قادرة على الوفاء بحق تجاربه ، وأن استخدامها له ما يبرره فى شعر اسلافه ، ولكن صورة الالحاح التى نراها فى شعره لاستدعاء تلك الاعلام التى تمثل رموزا عالية لقيم الجماعة فى الوفاء ، والكرم ، والاقدام ، والاباء ، والشرف ، والثورة ... الخ تشى بموقف الشاعر من واقعه الذى شحبت فيه تلك القيم التى تمثل عصب الحياة فى موطنه ، حيث يقول : (٦٢) .

أَدْنِ النجيبةَ للتَّرحالِ وأرْخِ لها زِمامَها واخْلط الرَّوحاتِ بالبُكَرِ
وخطِّها الخَطَّ إرقالاً وأوْلِ قِلى أوالَ لا نادماً واهجُرْ قُرى هجرِ
أماكناً لعِبَتْ أهلُ الفسادِ بها فدمَّروها بلا فِكرٍ ولا نَظَرِ

فالشاعر كان يرمى الى تجسيد القدوة للجماعة من خلال تلك الصور والمقابلات ، وإذا ما وضعنا فى الاعتبار أن ابن المقرب قد شاء له القدر أن يشهد آخر الفصول فى حياة السلطة العيونية ، فقد توفى عام

٦٣٠ هـ ، والدولة العيونية تؤذن بالزوال (٦٣٦ هـ) . كما أن نهاية الامبراطورية الاسلامية كانت وشيكة من وفاته ، فقد اجتاحها المد المغولى عام ٦٥٦ هـ . والشاعر قد أمضى فى العراق شطرا من عمره من خلال خمس رحلات متتالية زار فيها أهم حواضره ، واتصل بالخليفة العباسى وأمراء الدولة وكبرائها . لذا لا نستبعد أنه بحسه الشاعرى المرهف ، وقدرته على قراءة الواقع وسبر أغواره ، واستشراف مستقبله ، كان يحس بواجبه الوطنى والقومى المتمثل فى النفخ فى روح الجماعة ، لعلها تتجاوز عاهات الراهن العربى آنذاك .

وإذا كان ابن المقرب قد استطاع أن يعبر عن بعض المواقف من خلال مقارناته البارعة بين حاضره وماضيه ، أو من خلال خلق تلك المتوازيات بين تجاربه وما يماثلها من تجارب الأسلاف فى التراث العربى . إلا أنه من الواضح أن كيفية توظيف هذه العناصر التراثية ، يختلف الى حد كبير عن مثيله عند الشاعر العربى المعاصر ، فشعراء تجربة الشعر الجديد قد استطاعوا لأول مرة (أن ينظروا الى التراث من بعد مناسب ، وأن يتمثلوه ، لا صورا وأشكالا وقوالب ، بل جوهرا وروحا ومواقف ، فأدركوا بذلك أبعاده المعنوية ، وهم فى خروجهم على الاطار الشكلى للشعر القديم لم يكونوا بذلك يحطمون التراث ، بل كانوا يحطمون شكلا كان قد تجمد ومن شأنه أن يتطور ويتجدد ، فليس الشكل هو روح حقيقية فى زمان غير زمانه إذا كان الشكل وحده هو كل ما يمكن أن يستفاد منه . وإنما الشىء الباقى الفعال فى أى تراث هو قيمته الروحية والانسانية الكامنة فيه ، أى قيمته المعنوية [٦٣] .

إذن فتجربة الشعر الجديدة حين ثارت على البنية الشكلية للشعر القديم ، ظلت موصولة بجانب جوهرى فيه يتمثل فى تلك القيم المعنوية ، والروحية والفكرية والانسانية الكامنة فيه . فتجربة الشعر الجديدة إذن (تخلص لروح التراث وان تمردت على أشكاله وقوالبه ، والشعر المعاصر لم يطرح قضية التراث جانبا ـ كما توهم البعض ـ بل هو أعمق وأصدق إرتباطا بها . وكل من يتجاوز عن قضية الشكل ، ويتأمل هذا الشعر يلمس بوضوح كيف يعيش التراث فى ثناياه [٦٤] .

فشعراء تجربة الشعر الجديدة قد افادوا ـ ولا شك ـ من تجربة أسلافهم فى الشعر القديم ، حين لفتوا

أنظارهم الى تلك القيم المعنوية التى يزخر بها تراثهم ، والى إمكانية استغلالها فى التعبير عن معانيهم وتجاربهم . ولكن كيفية تعاملهم مع تلك المادة التراثية يمثل (صورة من صور علاقة الشاعر بالتراث لم يسبق له أن عرفها فى تاريخه الطويل ، وهذه الصورة هى ما يمكن أن نطلق عليه توظيف التراث ، بمعنى استخدام معطياته استخداما فنيا ايحائيا ، وتوظيفها رمزيا لحمل الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعرية للشاعر ، بحيث يسقط الشاعر على معطيات التراث ملامح معاناته الخاصة ، فتصبح هذه المعطيات معطيات تراثية ـ معاصرة ، تعبر عن أشد هموم الشاعر المعاصر خصوصية ومعاصرة فى الوقت الذى تحمل فيه كل عراقة التراث وكل إصالته ، وبهذا تغدو عناصر التراث خيوطا أصيلة من نسيج الرؤية الشعرية المعاصرة [٦٥] .

الهوامش

(١) راجع : د. طه وادي : جماليات القصيدة المعاصرة ص ٥٥ : دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٢م .
(٢) د. شوقي ضيف في النقد الأدبي ص ١٧٧ دار المعارف بالقاهرة ط ٥ ، ١٩٧٧م .
(٣) د. عبدالعزيز الاهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٧ ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٢م .
(٤) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص ٨ ـ ٩ تحقيق طه الحاجري ومحمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٥٦م .
(٥) المرجع نفسه ص ١٠ .
(٦) انظر د. علي عشري زايد ، توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر ، مجلة فصول ، ع ٢ ١٩٨٠م ، ص ٢٠٣ .
(٧) راجع د. أحمد الخطيب ، شعر علي بن المقرب العيوني دراسة فنية ص ٢٢٥ ـ ٢٨٨ دار المريخ بالرياض ، ١٩٨٤م .
(٨) د. طه حسين ، حديث الأربعاء ، ح ٢ ص ٨ ، مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٣٧م .
(٩) راجع عبدالله التطاوي ، الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد ، ص ٧٦ ، رسالة ماجستير مخطوطة بآداب القاهرة ١٩٧٦م .
(١٠) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٧ .
(١١) د. مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص ٤٢٠ ، الجامعة الليبية ، كلية الآداب (د. ت) .
(١٢) راجع شعر علي بن المقرب العيوني دراسة فنية ، ص ٢٨٠ وما بعدها .
(١٣) انظر د. ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ص ١٩٢ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٢م .
(١٤) انظر نفس المرجع والموضع .
(١٥) د. علي عشري زايد ، إستدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ص ١٨ ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ، طرابلس ـ ليبيا ١٩٧٨م .

(١٦) ديوان ابن المقرب ، تحقيق عبدالفتاح الحلو ، ص ١٤٣ ، الناشر مكتبة التعاون الثقافي بالاحساء ١٩٦٤م .

(١٧) الديوان ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

(١٨) الديوان ص ٢٧٥ وكسع ، حي باليمن ، ولعله يعني غامد بن الحارث الكسعي الذي اتخذ قوسا وخمسة أسهم . وكمن للصيد ، فمر قطيع فرمى عيرا فأمخطه السهم وصدم الجبل فأورى نارا فظن انه قد أخطأ فرمى ثانيا وثالثا إلى أخرها وهو يظن خطأه فعمد إلى قوسه فكسرها ثم بات ، فلما أصبح نظر فإذا الحمر مطرحة مصرعة وأسهمه بالدم مضرجة فندم فقطع ابهامه وانشد :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمر ابيك حين كسرت قوسي

(١٩) الديوان ص ٤٢١ وزبيدة : هي زوجة الخليفة الرشيد وأم الأمين . وكلبة حومل : يضرب بها المثل في الجوع ، وحومل : امرأة من العرب كانت تربي كلبة للحراسة وتجيعها وتطردها بالنهار ، فرأت ليلة القمر طالعا فنبحت عليه تظنه رغيفا لاستدارته ، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها .

(٢٠) وسطيح الكاهن هو ربيع بن ربيعة ، كاهن جاهلي غساني من المعمرين ، كان العرب يحتكمون إليه ويرضون بقضائه . وسليك المقانب هو سليك بن السلكة وهي أمة وكانت سوداء وكان هو أيضا أسود ، وكان من أعدى الناس لا يشق غباره ، وأخباره في العدو والغارة مشهورة .

(٢١) رأمه وأرأمه : عطفه على غير ولده ، والعيدهية : السيء الخلق ، وبرشم : وجم ، وعوج : اسم رجل هو عوج بن عوق ذكر من عظم خلقه شناعة ، وذكر انه كان ولد في منزل آدم فعاش إلى زمن موسى عليه الصلاة والسلام وذكر انه كان مع فراعنة مصر ، ويقال : كان صاحب الصخرة أراد أن يلحقها على عسكر موسى عليه السلام ، وهو الذي قتله موسى . (اللسان مادة عوج) ويقال في أساطير العرب انه قتل فصارت جثته جسرا على النيل . وقدار بن سالف : عاقر الناقة ، ومنشم بنت الوجيه العطارة بمكة ، وكانت العرب تقول : اشأم من عطر منشم .

(٢٢) الديوان ص ٦٤٠ . أبو غبشان هو المحترش بن ربيعة الخزاعي ، كان حاجب البيت الحرام بعد أبيه ، وكانت العرب تجعل له جعلا في كل موسم ، فقصروا به في بعض المواسم ، فغضب فدعاه قصي بن كلاب فسقاه ، ثم اشترى منه البيت بأزواد وقيل بزق خمر .
(الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٦٧ ، ٦٨) .

(٢٣) الديوان ص ١٣٨ .

(٢٤) الديوان ص ٣٢٠ . قيس بن زهير العبسي ، أحد دهاة العرب كان يلقب بقيس

الرأي لجودة رأيه ، وهو أمير عبس وأحد الشجعان الخطباء . زهد في آخر عمره ورحل إلى عُمان وعف عن الطعام وأكل الحنظل ومازال في عُمان حتى مات سنة ١٠ هـ ، ووبل قرية من نواحي عُمان .

(٢٥) الديوان ص ٦٣٩ . العياش : عياش بن سعيد رأس بني محارب ، والعريان بن إبراهيم بن عامر بن الحارث رأس بني مالك .

(٢٦) الديوان ص ٢٤٢ والعجر والبجر العيوب والأحزان ، وما أبدى الانسان وما أخفى .

(٢٧) الديوان ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٨) الديوان ص ١٥٦ ابن قاهث : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وهو من يضرب به المثل في كثرة المال .

(٢٩) الديوان ص ١٨٤ ، ١٨٥ . قعقاع بن شور ، ذلك الذي يقول فيه الشاعر : (وكنت جليس قعقاع بن شور : ولا يشقى بقعقاع جليس) وهو من بني بكر بن وائل ، تابعي ، شهد عهد معاوية بن أبي سفيان ، يضرب به المثل في حسن المجاورة ، قيل : كان يجعل لمن جالسه نصيبا من ماله ويعينه على عدوه ، ويشفع له في جوانحه ، ثم يغدو إليه بعد المجالسة شاكراً ، وكعب بن مامة الايادي ، يضرب به المثل في الجاهلية في الكرم وحسن الجوار .

(٣٠) الديوان ص ٥٠٢ . وبسطام بن قيس الشيباني الفارس الشاعر ، وقد سبق ذكره ، وهانىء بن قبيصة الشيباني ، يضرب به المثل في الوفاء والعزة ، وموقفه من النعمان بن المنذر حين نقم عليه كسرى معروف ومشهور . (الديوان ص ٥٩٠) .

(٣١) الديوان ص ٤٩٢ . قيس بن معديكرب الكندي صاحب مرباع حضرموت في الجاهلية ، وولده الاشعث بن قيس الذي مدحه الاعشى فأجزل له العطاء ، ولعله أراد قيس بن مسعود بن ذي الجدين ، وكان عاملا لكسرى على طف العراقين والابله ، وولده بسطام الشيباني الشاعر الفارس ، ومعبد : لعله يعني معبد بن حنش بن مالك التغلبي . أو معبد بن أُحيحه بن الجلاح أخو عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف (جمهرة انساب العرب لابن حزم الأندلسي ، تحقيق عبدالسلام هارون ، ص ١٤ ، ٣٠٧ ، دار المعارف ١٩٨٢م). وأوس بن حارثة بن لام الطائي أحد سادات العرب وأجوادها في الجاهلية (الديوان ص ٢٠٣) وكعب سبق ذكره .

(٣٢) الديوان ص ٢٠٣ . أوس بن حارثة الطائي ، سبق ذكره . أويس بن عامر القرني : تابعي عابد متنسك ، أدرك حياة النبي ﷺ ، ولسكناه الرمال والقفار لم يره . وأبو بحر هو الأحنف بن قيس التميمي ، أحد الدهاة الفاتحين العظماء ، ضرب به المثل في الحلم ت ٧٢ هـ .

(٣٣) الديوان ص ٣١٢ . وقيس بن خالد هو ذو الجدين الكندي ، وذو الجدين (كما

في القاموس) هو عبدالله بن عمرو بن الحارث ، وعمرو بن ربيعة فارس الضحياء ، وسعد بن مالك البكري الوائلي قتل في حرب البسوس ، وله أشعار جياد ، والمرثديون ، رهط زيد بن مرثد ، وخالد بن يزيد بن مرثد بن زائدة ، وذلك بيت كرم في ربيعة لا ينازع ، والبرامك هم وزراء العباسيين وحجابهم ، عرفوا بالكرم واشتهروا به .

(٣٤) الديوان ص ٣٨٧ .

(٣٥) نفس المرجع والموضع .

(٣٦) الديوان ص ٥٦٥ . وعمرو بن معديكرب الزبيدي يضرب به المثل في الاقدام ، وعوف بن محلم بن ذهل بن شيبان يضرب المثل بوفائه ، لان عمرو بن هند طلب منه مروان القرظ ، وكان قد أجاره فمنعه عوف وابى أن يسلمه .

(٣٧) الديوان ص ١١٧ . قيس بن ساعدة الايادي من أفصح العرب وأخطبها ، توفي قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة . وقيس بن عاصم المنقري اشتهر بالحلم والشجاعة ، وقدم على النبي ﷺ في وفد بني تميم فأسلم وتوفي سنة ٢٠ هـ ، والحارث بن عباد البكري أحد سادات العرب وشجعانها ، وهو الذي انتصرت به بكر على تغلب حينما ثار لمقتل ولده بجير في حرب البسوس .

(٣٨) الديوان ص ٥٦٩ ، ٥٧٠ . بشر بن الحارث بن علي بن عبدالرحمن المروزي المعروف بالحافي ، من ثقات رجال الحديث ، له في الزهد والورع أخبار توفي ببغداد عام ٢٢٧هـ والجنيد بن محمد البغدادي الصوفي ، عالم فاضل ، شيخ مذهب التصوف في أيامه توفي ببغداد عام ٢٩٧هـ ، وعامر : لعله يعنى عامر بن شراحيل الشعبي ، تابعي من رجال الحديث الثقاة عام ١٠٣هـ ، أو لعله يعني عامر بن عبدالله المعروف بابن عبد قيس العنبري ، تابعي ناسك متعبد من أقران أويس القرني .

(٣٩) الديوان ص ٣٧٧ . ابن تارح : إبراهيم عليه السلام .

(٤٠) الديوان ص ٤٠١ . عمير بن الحباب بن جعدة السلمي ، ومن ولده زياد والحجاف بن حكيم البطلان الفاتكان (الجمهرة ص ٢٦٤) .

(٤١) الديوان ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٤٢) الديوان ص ٤٢١ . دغفل بن حنظلة بن زيد الذهلي الشيباني ، يضرب به المثل في معرفة الانساب ، قال الجاحظ : لم يدرك الناس مثله لسانا وعلما وحفظا ، تولى تعليم يزيد بن معاوية ت ٦٥هـ .

(٤٣) الديوان ص ٤٤٩ .

(٤٤) الديوان ص ١٨٣ .

(٤٥) الديوان ص ١٨٠ . شبيب بن يزيد الخارجي أحد كبار الثائرين على بني أمية ، كان داهية طماحا إلى السيادة ، خرج بالكوفة ونادى لنفسه بالخلافة ، فشل الحجاج في قتاله ، وتكاثرت عليه جيوش الشام . فقتل كثيرون من

أصحابه ، ونجا بمن بقى منهم فمر بجسر دجيل (في نواحي الاهوان) فنفر به فرسه ، وعليه الحديد الثقيل من درع ومغفر وغيرهما فألقاه في الماء وغرق سنة ٧٧هـ . ومصاد بن يزيد بن نعيم الشيباني أخو شبيب ، ثار معه ، وشهد أكثر حروبه ، وأعانه على كروبه .

(٤٦) الديوان ص ١٤١ ، ١٤٢ . لعله أراد قيس بن ثعلبة بن عكابة من بنى بكر بن وائل ، ولعله أراد قيس بن مسعود بن ذي الجدين ، ولعله يقصد بخالد : خالد بن جعفر العامري فارس هوازن وشاعرها في الجاهلية ، ويقوى هذا ان لخالد عقبا ينسبون إليه ، وهم بطن من عامر بن صعصعة . وشريك أبو بطن من بطون العرب ، وهو شريك بن مالك بن عمرو ، والعراعر : الشرفاء ، والمفرد على صورة الجمع بعد ضم العين ، وديار ابن منذر : أرض الحيرة نسبة إلى النعمان بن المنذر .

(٤٧) مطلع قصيدة قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى

الديوان ص ٢٧،٢ . المنذران : لعله يعنى بهما المنذر بن ماء السماء ، والمنذر بن الحارث الغساني ، والأول هو ثالث المناذرة ملوك الحيرة في الجاهلية ، وهو من أعظمهم وأشدهم بأساً . والثاني هو ابن الحارث بن جبلة الغساني ، أمير بادية الشام قبيل الاسلام من قبل قيصر الروم ، وذو الكلاع هو يزيد بن النعمان الحميري ، وذو الكلاع الأكبر ، وهو وذو الكلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر من أذواد اليمن وملوكها في الجاهلية ، وسمي ذو الكلاع لان حمير تكعلوا على يده أي تجمعوا .

(٤٨) راجع : شعر علي بن المقرب العيوني دراسة فنية ص ١٩ وما بعدها ، ص ٢١٨ وما بعدها . وانظر : علي بن المقرب العيوني حياته وشعره ، د. علي عبدالعزيز الخضيري ، ص ٣٢٣ وما بعدها . وانظر : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، سجل شعر تاريخي فريد ، د. شوقي ضيف ، العدد ٣٨ نوفمبر ١٩٧٦م .

(٤٩) الديوان ص ٥٨٨ . كانت مساكن قضاعة بين جدة وذات عرق (بقرب مكة) ، وقد أجلاهم عنها العدنانيون ، فتفرقوا في الحجر ووادي القرى ، واستقر بعضهم بأطراف الشام ونجد ، وكلب قبيلة ينسبون إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاعة جد جاهلي ، وفهد قبيلة ينسبون إلى فهد بن زيد بن ليث من بني الحاف من قضاعة ، وهو جد جاهلي أيضا ، وكذلك خولان ينسبون إلى خولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة ، وهو جد جاهلي يماني . كان يوم خزازي لمعد على مذحج ، وخزاز جبل ما بين البصرة إلى مكة ، وكانت معدلا تستنصف من اليمن ، ولم تزل اليمن قاهرة لها حتى كان هذا

اليوم فانتصرت معد ، ولم تزل لها المنعة حتى جاء الاسلام ، ويوم السلان لبني عامر على النعمان بن المنذر اللخمي ، ويقصد بهذه الاشارة إلى انتصار عرب الشمال على عرب الجنوب ، أعنى العرب المستعربة على العرب العاربة .

(٥٠) الديوان ص ٥٩٠ . ويشير هنا إلى موقف الوفاء النادر حين دفع النعمان بن المنذر بآله وأولاده وماله إلى هانىء بن قبيصة الشيباني ، وذهب إلى كسرى ، وما حدث بعد ذلك من انتصار العرب على الفرس بذي قار . والقرامطة هم بنو بهرام ، وكبيرهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي ، كان تاجراً بالبحرين ثم دعا الناس إلى نحلته ، وعظم أمره وحارب الخلافة العباسية ، استولى على سائر هجر والاحساء والقطيف ، قتله خادم له في الحمام سنة ٣٠١هـ (الديوان ص ٤٦٩) . وقد وضع عبدالله بن علي العيوني نهاية لنفوذهم ومعتقداتهم عام ٤٦٧هـ (انظر تفصيلات ذلك في هامش الديوان ص ٥٣٣ ، وراجع شعر علي بن المقرب العيوني ، دراسة فنية ص ١٩ وما بعدها) . وعتيك : قبيلة تنسب إلى عتيك بن الأزد بن عمران بن عمرو بن مزيقاء الكهلاني القحطاني ، وحدان : قبيلة تنسب إلى حدان بن شمس بن عمرو بن غنم بن غالب الأزدي (الديوان ص ٥٩٠) .

(٥١) الديوان ص ٦٠٩ . حجر بن الحارث الكندي من بني أكل المرار ، وهو أبو امرىء القيس ، ثار بنو أسد عليه فقتلوه ، وقد ثأر امرؤ القيس لأبيه من بني أسد ، وعمرو هو عمرو بن معديكرب الفارس العربي المعروف ، وصهبان بن سعد بن مالك القحطاني جد جاهلي ، وجاء في احدى مخطوطات الديوان هو صهبان بن الحارث الحميري ملك التبابعة ، والأسوار مهران قائد الفرس .

(٥٢) الديوان ص ١٩٩ . عمير : فرس حنظلة بن سيار (القاموس) ، والضبيب : فرس حسان بن حنظلة الطائي (أنساب الخيل لابن الكلبي ، دار الكتب المصرية ١٩٤٦م ، ص ٩٥) ، وكامل : من خيل ضبة ، وهو فرس زيد الفوارس الضبي (انساب الخيل ٥٢) ، وذات نسوع : فرس بسطام بن قيس (القاموس) ، والنعامة : فرس قراض الازدي (انساب الخيل ١٠٦) ، والخطر : ليس في القاموس الا الخطار ، وهو فرس حذيفة بن بدر الفزاري وفرس حنظلة بن عامر النميري .

(٥٣) الديوان ص ٣٧٣ . محبوك القرى : محكم الظهر قوية ، وفرس مشنج النسا : لم تسترخ رجلاه ، والرعال : جمع الرعيل ، وهى القطعة من الخيل قدر العشرين أو الخمسة والعشرين . وحلاب من خيل بني تغلب من نتاج أعوج (انساب الخيل ١١٣) ، ولاحق : من الجياد المنجبة ، وكان لفتى بن اعصر بن قيس عيلان (انساب الخيل ص ٢٢) ، وكامل سبق ذكره ، وذو العقال : من جياد العرب وفحول الخيل (انساب الخيل ١٢٩) .

(٥٤) الديوان ص ٤٨٥ .

(٥٥) الديوان ص ٤٨٦ . همام بن مرة بن ذهل بن شيبان اخو جساس قاتل كليب ، وهو من سادات شيبان ، والحوفزان لقب الحارث بن شريك لان قيس بن عاصم رضى الله عنه حفزه بالرمح حين خاف أن يفوته ، وكان الحوفزان سيد بكر بن وائل ، وبسطام بن قيس بن مسعود الشيباني من أشهر العرب في الجاهلية ويضرب المثل بفروسيته ، قتله عاصم بن خليفة الضبي يوم الشقيقة قبل الهجرة .

(٥٦) الديوان ص ٥٩٩ . بسطام بن قيس الشيباني سبق ذكره ، وحمزة بن عبدالمطلب رضى الله عنه قتله وحشى بن حرب الحبشي في غزوة احد ، استخفى له خلف حجر ثم رماه بحربة كان يرمى بها رمى الحبشة فلا يكاد يخطىء ، ومحمد بن الحواري العيوني حمل ذات يوم على المغيرين على الاحساء وطرد خيلهم ، ولحق رجلا فحقره من أن يقتله فتركه ، فحين تعداه زرقه بالرمح فقضى عليه .

(٥٧) الديوان ص ٥١٦ .

(٥٨) الديوان ص ٥٧٦ . وعيصو بن اسحق عليه السلام أبو الروم ، وأبو العيص كنيته .

(٥٩) الديوان ص ٤٤٢ .

(٦٠) الديوان ص ٦٢٢ . وكسرى أنوشروان هو المشهور بعدله .

(٦١) الديوان ص ٦٤٠ .

(٦٢) الديوان ص ٢٤٢ . خلط الروحات بالبكر : معناه الدوام على السير ، والخط : القطيف ، والارقال : الاسراع ، والقلى : البغض ، وأوال : جزيرة بالخليج العربي ، وهي التي يطلق عليها الآن مع مجموعة جزر صغيرة تجاورها اسم دولة البحرين ، وهجر : قصبة البحرين ، وهى اما مدينة الاحساء الحالية ، أو كانت تقع قريبا منها ، وهجر تطلق أيضا على البحرين في الاصطلاح القديم ، وكانت تشمل المنطقة الشرقية من جزيرة العرب .

(٦٣) د. عز الدين اسماعيل/الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، دار الفكر العربي (د. ت) ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٦٤) نفس المرجع والموضع .

(٦٥) د. علي عشري زايد ، توظيف التراث في شعرنا المعاصر ، مجلة فصول ، ع ٢ ، ص ٢٠٤ .

